البحر قد يطغى يوما فيغمر هذا الوطن القوى بما فيه ويصبح أثراً بعد عين

والسياسة البريطانية لا يمكن أن يفوتها مثل هذا الاعتبار الخطير الذى تنوه به الصحف البريطانية ؛ ولكن الظاهر أن عوامل أخرى تملى على السياسة البريطانية تشددها نحو بحث المسألة الفلسطينية ؛ فنحن نعرف أن السياسة البريطانية قد منيت بالفشل الذريع فى محاولتها إحباط الغزوة الايطالية للحبشة ، وأن ظفر الاستعمار الفاشستى يثير اليوم فى انكلترا مخاوف خطيرة بالنسبة لمستقبل سيادتها فى شرق افريقية ووادى النيل ، وكذلك بالنسبة لمواصلاتها الامبراطورية فى البحر الأبيض المتوسط ؛ وتخشى انكلترا أن تساهلها نحو أمانى فلسطين — وفلسطين تعتبر قاعدة حيوية فى مواصلاتها الامبراطورية — قد يحمل على نوع من الضعف والتسليم ويعرض هيبتها الاستعمارية للانتقاض . وقد رأينا المندوب السامى فى فلسطين يرد على مطالبة العرب بوقف الهجرة الصهيونية باصدار تصريح جديد بهاجرة أربعة آلاف وخمسمائة عائلة يهودية ، متجاهلاً بذلك أن طغيان الهجرة من أهم أسباب الثورة القائمة . هذا إلى أن نفوذ اليهودية فى انكلترا يعمل عمله ؛ وقد رأينا زعيم الصهيونية الدكتور ويزمان يسارع بالعودة من فلسطين إلى انكلترا منذ بدء الثورة الفلسطينية ؛ وقد كان لمساعى هذا الزعيم دائما أثرها فى موقف السياسة البريطانية نحو فلسطين ونحو رعاية الوطن القومى اليهودى

على أن السياسة البريطانية لا يمكن أن تحتفظ طويلاً بهذا الموقف الشاذ ؛ ففلسطين تقف اليوم موقف الحسم ، وتصر على أن تبحث مطالبها وأمانيها بعين الانصاف ، ومن ورائها عطف الأمم العربية والاسلامية كلها ؛ وانكلترا تقدر بلا ريب مدى هذا العطف وآثاره ؛ وبحث القضية الفلسطينية بروح الانصاف لا يمكن أن يعتبر ضعفاً أو تسليما كما يريد أن يفسره غلاة الاستعمار ؛ أما الأصرار على تمكين اليهودية من أعناق فلسطين ، ودفع الشعب الفلسطينى إلى منحدر التلاشى والفناء ، والاكتفاء بارسال لجان التحقيق فسياسة خطرة ؛ ولا ريب أنها تعرض مركز انكلترا فى الشرق الأدنى ، وفى العالم الاسلامى كله لأشد الأخطار

* * *

قصة المكروب

كيف كشفه رجاله

ترجمة الدكتور أحمد زكى

الحصانة واليهودى الأفاق

— ١ —

ما أغرب هذا العلم علمَ المكروبات ، وما أعجب ما كان من أمره فى يوم وُلِد !

بدأ هذا العلمَ رجلٌ قمّاش لم يُثقف ثقافة مذكورة ، ومع ذلك كان أول راءٍ رأى المكروبات ، ثم جاء كيميائى فأوجد للمكروبات مكانة ذات بال فى خريطة الوجود ، وأرعب الناس منها وأرعد . ثم تلاه طبيب قروى ، فجعل من صيادة المكروب شيئاً منظماً قارب أن يكون علماً صحيحاً . وأراد فرنسى وألمانى أن ينجوا بالأطفال من سم مكروب من أقتل المكروبات ، فجزرا فى سبيل ذلك أعدادا لا تحصى من الخنازير الغينية ومن الأرانب لو تراكمت لبلغت أكواماً كالجبال . إن تاريخ صيد المكروب تاريخ ملىء بالخاطرات الجميلة ، والايحاءات النادرة ؛ ولكن به كذلك كثير من الغباوات الدهشة ، والمتناقضات المجنونة . ولا يختلف تاريخ علم المكروب فى هذا عن تاريخ علم الحصانة immunity وهو العلم الذى لا يزال ناشئاً ، وبه تتفسر لنا مناعة الانسان من المكروب ، فالذى بدأ هذا العلم ، على نحو ما ، هو رجلٌ باحث كثير الاهتياج ، قليل الاتزان ، ذو جنّة تعاوده كثيراً

وكان هذا الرجل يهودياً يدعى إيلى متشينيكوف Elie Metchnikoff ، ولد فى جنوب روسيا عام ١٨٤٥ ، وقبل أن يبلغ العشرين قال لنفسه : « إنى ذو غيرة وذو مقدرة ، وقد حبتنى الطبيعة مواهب راجحة ، وأنا أطمح أن أكون بحاثاً كبيراً »

وذهب هذا الشاب إلى جامعة خركوف Kharkoff ، واستعار من بعض أساتذته مجهراً ، وكانت المجاهر عندئذ نادرة ، وأخذ ينظر فيها نظرات لم تكن دائماً بينة واضحة ، ومع هذا قام على

أثرها فكتب مقالات علمية طويلة ، وذلك قبل أن يعلم ما العلم وما كنهه وما جوهره ، وغاب أشهراً عن فصول الجامعة وعن دروسها ؛ ولم يكن للعب غاب ولكن للقراءة ؛ ولم تكن قراءة القصص والنوادر ، ولكن قراءة مؤلفات كبيرة في العلم مثل كتاب : « بلّورات لأجسام زلالية » ، وغير ذلك كان يقرأ كُتَيِّبات ونشرات لو اطّلع عليها رجال الأمن لنفوه إلى مناجم سيبريا ؛ وكان يسهر الليالي ، ويكرع جالونات من الشاي ، ويخطب رفقاءه ، وهم أجدادُ بلاشفةِ اليوم ، خُطباً هائجة ساخبة جاحدة تنكر وجود الله حتى لقبوه « لا إلّه » ، وجاءت خاتمة السنة فقام إلى دروسه التي تراكمت في الأشهر السابقة فحفظها عن ظهر قلب ؛ وكانت له ذاكرة أشبه شيء باسطوانات الفونوغرافات منها بالعقل الانساني ، فجاز الامتحان وظهرت النتيجة فكتب إلى أهله يقول لهم إنه نجح وكان أول الناجحين ، وفوق ذلك نال وساماً من ذهب

وكان متشينيكوف شديد العجلة في أمره نفسه ، يودّ أن يسبق الزمن بها ، ويحملها على أشياء قبل أن يأتي أوانها . بعث بالمقالات العلمية وهو لا يزال في عقده الثاني ، وكان يكتبها في سرعة الهالع بعد ساعات قليلة من تحرير مجهره على بقة أو خنفساء ، ويصبح الصباح فيعود إلى مجهره ليراها مرة أخرى ، فاذا به يرى ما لم يكن رآه بالأمس فيسرع بالكتابة إلى رئيس تحرير المجلة يقول له : « أرجو ألا تنشر مقالة الأمس ، فقد وجدت نفسي مخطئاً . وأحياناً كان يرسل المقالة فلا تنشرها المجلة فيثور ويغضب ويصيح : « إن الدنيا تجهل قدري » ، ويذهب إلى غرفته يتأهب للموت وهو يصفّر صفير اليائس الحزين : « لو كنت في صِفَر الحلزون ، لطويت جسمي في صدفي »(١)

بكى وناح لأن أساتذته والناس لم يَقْدِروا مواهبه حق قدرها ، ولكن لم يَفتّ ذلك في عضده ولم يستطع أن يضمضع من أمله ، فنسي ما كان انتواه من قتل نفسه ، ونسي ما كان من ضيقه ووجع رأسه ، أنساه إياه حبه القيم لكل شيء حيّ . ولكنه أفسد على نفسه الفرصة كلما أمكنته من إجراء بحث علمي قيّم متواصل ، ذلك بأنه كان دائماً يشاجر أساتذته وينازع معلميه . وأخيراً كتب إلى أمه ، وكانت تؤمن به وتعطف عليه وتفسده ، فقال لها : « إن أكبر همي أجده في دراسة البروتوپلازم Protoplasm ، في دراسة مادة الجسم الحية . . . ولكن روسيا خالية من العلم والعلماء » . وعلى هذا ذهب مسرعاً إلى جامعة ڤرتزبرج Würzburg بألمانيا ؛ فوجد أنه وصل قبل ابتداء العام الدراسي بستة أسابيع . فأخذ يبحث عن بعض الطلبة الروسيين فوجدهم ، ولكنهم لم يرحبوا به لأنه كان يهودياً ، فضاقت بنفسه مسالك الحياة ، وعاد راجعاً إلى بلده وهو يعتزم الموت . وكان في حقيبته بضعة من الكتب التي اقتناها ، وكان من بينها كتاب أصل الأجناس Origin of Species لصاحبه دارون ، وكان خرج إلى السوق حديثاً ، فقرأه ، وفي جرعة عقلية واحدة بلع كل الذي فيه ، وصار من أنصار نظرية النشوء الشديدين . ومن هذا الوقت دان بهذه النظرية إلى أن تهيأ له الوقت ليصطنع لنفسه من العلم ديانات جديدة يدين بها

نسي ما اختطه لهلاك نفسه ، وبدأ يخطط الخطط لأبحاث في هذه النظرية الجديدة ، ورقد الليل ولكن لم ينمه لأنه أخذ يتخيل الخيالات عن ساحات واسعة قد امتلأت بطوائف الأجناس الحيوانية من الصرصور الصغير إلى الفيل الكبير ، ثم تخيل إلى جانبها حيا بالغ الصغر هو جدها الكبير الأبعد

وكان هذا الانقلاب بدء حياة متشينيكوف الحق ، فانه عندئذ خرج يحاج ويشاجر من معمل إلى معمل ، ومن روسيا إلى ألمانيا إلى إيطاليا ، ومن إيطاليا إلى جزائر هيليجو لاند Heligoland وأدام هذا الشجار والحجاج عشر سنوات ، واشتغل في بحث نشأة الديدان ، واتهم لوكارت Leucart عالم الحيوان العلاّمة بسرقة بضاعته ؛ وكانت أصابعه لا تحسن العمل الدقيق ، وكان لا يرجى لها أن تتعلم إحسانه ، فذات مرة جاء بعظاية وضرب فيها بكلتا يديه ضربة الستقتل اليائس يريد أن يكشف في بطنها عن سرّ النشوء ، فلما أعجزه أن يعلم منه شيئاً رمى بالذي تبقى من الزاحفة عبر المعمل . كان متشينيكوف على نقيض كوخ ولوفن هوك ، فهذان الرجلان العظيمان عرفا كيف يتلطفان إلى الطبيعة فيسألانها عما يريدان وفازا منها بالجواب . أما صاحبنا فقرأ كتباً في نظرية النشوء ، فألهمته وحمسته ، فآمن بها

وأعلن إيمانه مسموعاً عالياً ، ثم جاء بعد ذلك يعالج التجارب لا ليمتحن بها عقيدته الجديدة ، بل ليفرضها على الطبيعة فرضاً ، وليدسّها في حلقها لتبلعها اغتصاباً . ولكن العجيب أنه أصاب

(١) هذه أغنية معروفة ، والحلزون دويبة من اللافقريات الرخوة تحمل فوق ظهرها صدفها وفيه تنكمش عندما تريد Snail

فى هذا أحياناً ، وعندئذ كانت إصاباته ذات خطر كبير . ولم يكن عندئذ يعلم شيئاً عن المكروب ، أعنى فى آخر العقد الثامن من القرن الماضى . ولكن الحاحه كالمجنون فى إثبات أن الأصلح هو الأبق ، وأن الفاسد للذهاب ، هو الذى ساقه إلى تلك النظرية البديعة الخلابة نظرية الحصانة التى تصف كيف يصدّ الانسان هجمات الفاتكات من المكروب . وهى نظرية صحيح بعضها برغم مظهرها الخيالىّ الذى لا يدعو إلى التطامن إليها

كانت السنوات الخمس والثلاثون الأولى من حياته كثيرة الاضطراب والصخب أشرف فيها على الهالك ، ولكنه سار من طريقها المخطر على جسر ضيق نفذ به فى آخر الأمر إلى الشهرة الواسعة التى كانت تنتظره على شواطىء صقلية فى البحر الأبيض المتوسط . وتزوج قبل أن يبلغ الثالثة والعشرين لدْميلا فودورفتشى Ludmilla Feodoaovitch وكانت مسلولة حتى كان لابد من حملها فى كرسيّها إلى حيث يعقد زواجها . وتبع هذا الزواجَ أربع سنوات مضت عليهما فى أبأس حال وأكثرها استدراراً للرحمة ، قضياها يجرّ بعضهما بعضاً عَبْر أوربا يبحثان عسى أن يجدا لذات الصدر دواء . وفى أثناء ذلك ، وفى أثناء تمريضه هذه الزوجة العليلة المسكينة تمريض عطوف حنان توتّر عصبه وثقل قلبه كان يختطف سويعات يجرى فيها تجارب يدْرس بها تنشّؤ بقَ النبات والأسفنجيات والدود والعقارب ، يريد بذلك أن يقع على اكتشاف يهز الناس فتأتيه من ورائه أستاذيّة تدرّ عليه مالاً كثيراً . وهمس لنفسه وهو يكتب رسالاته العلمية ، وهمس لها وهو يبعث بالرسل ويدفع بالوسائط ويختط الخطط ويحاور ويداور فى طلب الوظيفة ، قال : « إن البقاء ليس للأصلح ؛ وليس هو للأكثر طيبة وخيراً ، وإنما هو للأشد مكراً وللأنكى خبثاً

وماتت لدْميلا . وكانت قضت أيامها الأخيرة تتخلص من آلامها بالمرفين ، فاقتبس زوجها عادة المرفين منها ، ولما نفض تراب قبرها عن يديه قام عنه هائماً يضرب فى الأرض ، واخترق أسبانيا متوجهاً الى جنيفا وهو يزيد كل يوم مقدار العقار الذى يتعاطاه ، وساءت عيناه أثناء ذلك وآلمته ألماً كبيراً . وما الباحث فى الطبيعة إذا لم يكن له عينان تبصران ؟ وصرخ : « ما الفائدة من هذا العيش ! » ، وأخذ جرعة كبيرة من المرفين أيقن أنها لا بد قاتلته ، ولكنها كانت أكبر مما تحتمله المعدة فقاءها . وصرخ مرة أخرى : « ما نفع هذه الحيـاة ! » ، واستحم استحامة ساخنة وخرج منها يتعرض عامداً الى الهواء البارد الطلق عسى أن تصيبه من ذلك نيمونيا فتذهب بحياته ، ولكن يظهر أن الآلهة الحكيمة المزاحة التى تقوم بتجهيز البحاث لهذا الكوكب شاءت له غير الذى شاءه لنفسه ، أبقت عليه لحاجة فى نفسها . وفى هذه الليلة عينها ساقته رجلاه الى حيث أبصر طائفة من الحشرات كالغمام تدور وتدوّم حول لهب مصباح . فاستوقفه هذا المنظر ووقف يتأمله بتعجب ظاهر وفم مفغور . صاح لنفسه : « إن هذه الحشرات لا تعيش إلا ساعات قليلة ، فليت شعرى كيف يستفاد بهـا لدرس نظرية بقاء الأصلح ؟ » . وبهذا عاد فوصل من جديد تجاربه المقطوعة

حزن متشنيكوف على زوجه حزناً شديداً ، ووجد عليها وجداً مبرحا ، ولكن الأيام كانت سريعة فى شفاء الوجد ولأم الجرح العميق . وتعين أستاذا فى جامعة أودسّا ، وفى هذه الجامعة علّم نظرية بقاء الأصلح ، وفيها وَضحَ علمه ، وارتفع قدره ، وزاد فى الناس إجلاله . ولم تمض سنتان على وفاة زوجته الأولى حتى التقى بفتاة فى الخامسة عشرة ، فى وجهها بشاشة ، وفى قلبها ذكاء . وكان اسمها أولجا ، وكانت ابنة رجل ذى يسار ، ونظرت اليه ، فأسرَّت عينها إلى قلبها ، قالت : « إن وجهه كوجه المسيح فى قدسيته ، لونه امتقاع ، وعليه سحابة من كآبة » . ولم يمض طويل من الزمن حتى تزوجها

ومنذ هذا الزواج هدأت حياته كثيرا ، وقلت نداءاته لعزرائيل كثيرا ، وأخذت بداه تتعلمان اجراء التجارب لتلحق بعقله الذى نضج قبل أوانه ، وأصبح العلم له ديناً ، وتعلّق به إعاناً ؛ وأدخله فى كل أمر من أمور عيشه فى تحمس لم يسمع بمثله ، وأخذ بيد أولجا يدخلها فى هذا الدين علماً وفناً ، وعلّمها حتى علم الزواج وفنه ! وعبدت فيه ذلك اليقين المغرق الذى أعطاه العلم اياه ، ولو أنها قالت بعد ذلك بسنوات كثيرة : « إن الطريقة العلمية التى طبقها زوجى فى غير هوادة على كل شىء جاز ألا تخلق لنا إلا شراً فى تلك الساعة الخطرة من حياتنا ، والنفس دقيقة الحس فى انتقالها من حال الى حال

(يتبع) أحمد زكى